ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ينزل بوساطة رسله على خلقه ليحكم المنهج حركة الحياة للناس وعلى الناس ، إنه يحكم للناس أى لمصالحهم ، ويحكم على الناس إن فوتوا المصالح ، لأن الذى يُفوِّت مصلحة لسواه عنده ، لابد أن يلحظ أن غيره سيفوِّت عليه مصلحة عنده .

إذن ، فمن الإنصاف فى التشريع أن تجعل له وعليه ، فكل « تكليف عليه » يقابله « تكليف له » ، لأنه إن كان له حق ، فحقه واجب على سواه ، ومادام حقه واجباً على ما سواه ، فلزم أن يكون حق غيره واجباً عليه ؛ وإلا فمن أين يأخذ صاحب الحق حقه ؟

والحق سبحانه وتعالى حين ينزل المنهج يبلغه الرسل ويحمله أولو العلم ؛ ليبلغوه للناس . فالذين يكتمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء . ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تتأتى إلا من إنسان يريد أن ينتفع بباطل الحياة ؛ ليأكل حق الناس . فحين يكتمون ما أنزل الله ، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذى جاء ليسيطر على حركة الحياة .

وما نفعهم فى ذلك ؟ . لابد أن يوجد نفع لهم ، هذا النفع لهم هو الثمن القليل ، مثل « الرشا » ، أو الأشياء التى كانوا يأخذونها من أتباعهم ليجعلوا أحكام الله على مقتضى شهوات الناس .

فالله يبين لهم : أن الشيء لا يُثمن إلا بثمين من يعلم حقيقته ، وأنتم تُثَمّنون منهج الله ، ولا يصح أن يُثَمِّن منهج الله إلا الله . ولذلك يجب أن يكون الثمن الذى وضعه الله لتطبيق المنهج ثمنا مربحا مقنعا لكم ، فإن أخذتم ثمنا على كتمان منهج الله وأرضيتم الناس بتقنين يوافق أهواءهم وشهواتهم ، فقد خسرتم فى الصفقة ؛ لأن ذلك الثمن مهما علا بالتقدير البشرى ، فهو ثمن قليل وعمره قصير .

والأثمان عادة تبدأ من أول شيء يتعلق بحياة الإنسان هو قوام حياته من مأكل ومشرب ، لذلك قال الله سبحانه وتعالى : « أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » وإذا كانوا يأكلون فى بطونهم ناراً فكيف يكون استيعاب النار لكل تلك البطون ؟

لأن المؤمن كما قال الرسول يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، أى أن الكافر لا يأكل إلا تلذذاً بالطعام ؛ فهو يريد أن يتلذذ به دائما حتى يضيق بطنه بما يدخل فيه . لكن المؤمن يأخذ من الطعام بقدر قوام الحياة ، فسيد الخلق محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الشريف :

« حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده »[1]

إذن فالأكل عند المؤمن هو لمقومات الحياة وكوقود للحركة ، ولكن الكافر يأخذ الأكل كأنه متعة ذاتية . والحق يقول : « أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » يعنى كما أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة ، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من جنس ما فعلوه بالثمن القليل الذى أخذوه ، فهم أخذوا ليملأوا بطونهم من خبيث ما أخذوا وسيملأ الله بطونهم ناراً ، جزاء وفاقا لما فعلوا ، وهذا لون من العقاب المادى يتبعه لون آخر من العقاب هو « ولا يكلمهم الله » أى أن الحق ينصرف عنهم يوم لا أنس للخلق إلا بوجه الحق .

(١) هذا الحديث أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين والقرطبى فى تفسيره والكحال فى الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية .

ونحن حين نقرأ كلمة « لا يكلم فلان فلاناً » نستشعر منها الغضب ؛ لأن الكلام فى البشر هو وسيلة الأنس ، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان ، فكأنه يبغضه ويكرهه . إذن « لا يكلمهم الله » معناها أنه يبغضهمَ ، وحسبك بصدود الله عن خلقه عقابا وعذابا . لقد والأهم بالنعمة وبعد ذلك يصد عنهم . ويقول قائل : كيف نقرأ هنا أن الحق لا يكلمهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

( سورة المؤمنون )

نقول : صحيح أنه سبحانه يقول لهم : « لا تكلمون » ولكن الكلام حين ينفى من الله فالمقصود به هو كلام الحنان وكلام الرحمة وكلام الإيناس واللطف ، أما كلام العقوبة فهو اللعنة . إذن « لايكلمهم الله » أى لا يكلمهم الحق وصلا للأنس . ولذلك حين يؤنس الله بعض خلقه يطيل معهم الكلام . ومثال ذلك عندما جاء موسىٰ لميقات ربه ، ماذا قال الله له ؟

قال عز وجل :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

( سورة طه )

فهل معنى هذا السؤال أن الله يستفهم من موسى عما بيده ؟ . إنه سؤال الإيناس فى الكلام حتى يخلع موسى من دوامة المهابة .

وضربنا مثلا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ حينما يذهب شخص إلى بيت صديقه ليزوره ، فيأتى ولده الصغير ومعه لعبة ، فيقول الضيف للطفل : ما الذى معك ؟ إن الضيف يرى اللعبة فى يد الطفل ، لكن كلامه مع الطفل هو للإيناس . وعندما جاء

كلام الله بالإيناس لموسى قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

( سورة طه )

كان يكفى موسى أن يقول : عصا ، وتنتهى إجابته عن السؤال ، ولو قال موسى : عصا ، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام ، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له ليطيل الأنس بالله فيقول :

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

( سورة طه )

تأمل التطويل فى إجابة موسى . إنّ كلمة « هى » زائدة ، و« أتوكأ عليها » زائدة أى غير محتاج إليها فى إفادة المعنى ، و« أهش بها على غنمى » تطويل أكثر » و« لى فيها مآرب أخرى » رغبة منه فى إطالة الحديث أكثر .

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه أفضل النعم التى ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة .

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادى فلا يكلمهم ، فهذه مسألة صعبة . « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته ؛ ولا يطهرهم من الخبائث التى ارتكبوها ؛ ولا يجعلهم أهلا لقربه ، بعد ذلك يعذبهم عذاباً شديداً ؛ كَأنَ فيه عذابا سابقا ؛ ثم يأتى العذاب الأشد ، لأنهم لابد أن يلاقوا عذاباً مضاعفاً ، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله ، فتسببوا فى إضلال الخلق ، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم .

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »(١)

ما سر حرمان هؤلاء من كلام الله وتزكيته والنظر إليهم ؟ إن الشيخ الزانى يرتكب إثماً ، لا ضرورة له لأنه لا يعانى من سعار المراهقة . والملك الذى يكذب ، إنما يكذب على قوم هم رعيته ، والكذب خوف من الحق ، فمِمَّنْ يخاف الملك إذا كان الناس تحت حكمه ؟ . وعائل الأسرة عندما يصيبه الكِبْرُ وهو فقير ، سيسبب له هذا الكِبْرُ الكثير من المتاعب ويضيق عليه سبل الرخاء وسبل العيش ويجعله فى شقاء من العيلة ، فإن أراد أحد مساعدته فسيكون الكبر والإستعلاء على الناس حائلاً بينه وبين مساعدته ، وهذا هو معنى « لا يكلمهم ولا يزكيهم » ، فما معنى « لا ينظر إليهم »؟ إن النظر شراك العطف ، ولذلك يقطع الحق عنهم باب الرحمة والعطف من الأصل ، وهو النظر إليهم ، ويُذيِّل الحق الآية الكريمة بقوله : « ولهم عذاب أليم » أى مؤلم ، وعندما تسمع صيغة « فعيل » فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم « اليم » على أنه مؤلم .

ثم يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ﴾

يذكر الله لنا حيثية الحكم عليهم ؛ ولماذا لا يكلمهم ؛ ولماذا لا يزكيهم ، ولماذا يكون لهم فى الآخرة عذاب أليم ؟ إنهم قد بدلوا الضلالة بالهدى ؛ والعذاب

(١) (اخرجه الإمامُ مسلم فى صحيحه والثانى عن أبى هريره رضى الله عنه .

بالمغفرة . وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله ، ولكن انظر إلى فظاعة الجُرم . إن الناس حين يفصلون الجريمة عن العقاب فهم يعطفون على المجرم ؛ لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحاكمته ونسوا جريمته ، ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستفظعها ؛ فعليك استحضار الجرم الذى أوجب تلك العقوبة . ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة ، لأن الجريمة مرّ عليها وقت طويل ، ولم نرها ، وآثارها وتبعاتها إنتهت . ولم يبق إلا المجرم ؛ فيعطفون عليه ، ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات فى المحاكمات ، بل لابد من محاكمة المجرم من فور وقوع الجريمة وهى ساخنة ؛ حتى لا يعطف عليه الجمهور ، لأن تعطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ونعرف أن « الباء » تدخل على المتروك ، فالضلالة هنا أخِذَتْ وترك الهدى ، واستبدلوا العذاب بالمغفرة ، ومادامو قد أخذوا الضلالة بدلا من الهدى ، والعذاب بدلا من المغفرة ، فالعدالة أن يأخذوا العذاب الأليم .

وبعد ذلك يقول الحق : « فما أصبرهم على النار » هذا تبشيع للعقاب حتى يُنَفِّر منه الناس . ويريد منا الله أن نتعجب ، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال ، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة . فما الذى يعطيه الأمل فى أن يصبر على النار ؟ ، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذى يدفعه إلى النار ؟ . وما الذى جعله يصبر على هذا العذاب ؟ أعنده قوة تُصَبِّره على النار ؟ وما هذه القوة ؟ .

وكأن الحق يقول : أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء وإلا ما الذى يصبرك على هذه النار ؟ إنك تتمادى فى طغيانك وضلالك ، وتنسى أن النار ستكون من نصيبك ؛ فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك ؛ فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار . فالنار أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وذلك إشارة إلى ما تقدم ، وما تقدم هو الضلالة التى أخذوها وتركوا الهدى ، والعذاب الذى أخذوه بدلاً من المغفرة ، ونار يعذبون فيها ، وقد صبروا عليها ، إنها ثلاثة أشياء ملتقية ؛ العذاب ، والضلالة ، والنار .

فالضلال هو السبب الأصيل فى العذاب ، فإذا قال الله : عاقبتهم بكذا لأنهم ضلوا ، فذلك صحيح ، وإذا قال : فعلت فيهم ذلك لأنهم استحقوا العذاب ، فهو صادق ، والعذاب كحكم عام يكون بالنار .

إذن ، عندما يقول الحق : بالنار أو بالعذاب أو بالضلال فمرجعها جميعا واحد ، يقال عنه : « ذلك » . « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » والذى يغير الكتاب ويكتمه إنما يكره الحق . « وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » . إنها هوة واسعة يسقطون فيها ، فالشقاق فى القيم المنهجية السماوية هو هوة كبيرة ، فلو كان الخلاف فى أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم ، ولكانت مسألة سهلة . ولكن الخلاف فى أمر قيمى لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم ، من هنا فإن شقة الخلاف واسعة ، ولا يقوى على حلها إلا الله ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾

( من الآية ٣ سورة الزمر )

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين فى صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجهتهم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة : فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى المشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس فى مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلى يتجه إلى مُتجه ، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم : لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر ؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه ؛ فلا مشقة فى توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هى امتثال لأمر الآمر ، فالبر إذن ليس فى

الأمور السهلة التى لا مشقة فيها ، وإنما فى الخير الواسع الكثير ، ويشمل الإيمان ، ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل الإحسان ، وكل وجوه الخير تدخل فى كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، ومادام معناه متسعاً هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى مطلوب البر ، ومتعلقات البر التى تتطلب منكم المشقة ، ولا تختلفوا فى المسألة السهلة اليسيرة التى لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم : لا ، البر له مسئوليات تختلف ، إن مُتعلق البر هو أن يُختبر صدق الإيمان ، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقّت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصى ؛ وأن يعرف أن للمعاصى لذة عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة ؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تؤمَروا . والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذى يشمل كل وجوه الجمال فى الكون . يقول الحق : « ولكن البر من ءَامَنَ » .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثا عن ذات مجسدة ؛ برغم أن البر معنى ؟ . إن الحق يجسد المعنى وهو البر فى ذات العبد الذى آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعانى يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : «فلان عادل» ، أى نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل. ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكأنه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما ، ولكن حين نقول : « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدا ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا : لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول : « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات فى الصفة امتزاجا لا تتخلى عنه أبدا فكأن البر قد تجسد فيهم .

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآنى الكريم .

والحق يقول : « ولكن البر من آمن بالله » هذه بداية الإيمان ، ويأتى بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ « اليوم الآخر » ، إن بداية القوس هى الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

وهنا نتساءل : وكيف يأتى الإيمان باليوم الآخر ؟

نقول : يأتى الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فلا تقل : أنا جعلتهما فى صف واحد ، بل الإيمان بالله أولا ، وبعد ذلك الايمان بما أخبرنى به الله ، وقد أخبر سبحانه : أن هناك يوماً آخر ، فصدقت ما أخبر به . وتأتى مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : « والملائكة » فكيف نؤمن بخلق من خلق الله لا نراه ؟

إننا مادمنا قد آمنا بالقمة ، وهى الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيا فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذى أخبر بها هو الله ، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه ، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به ؛ لذلك تؤمن بها .

والمسائل الإيمانية كلها غيبية ، ولا تقول فى الأمر الحسى : « إننى آمنت به » ، إنما تقول : « آمنت » فى الأمر الغيبى ؛ لأنه أمر غيبى لا تأنس به الحواس والإدراكات ، وتريد أن تجعله عقيدة ، والعقيدة هى أمر يُعقد فلا ينحل أبدا ، ولأنه أمر غيبى فربما ينفلت منا ؛ لأنه لو كان أمرا مشهديا لما غفل عنه الإنسان أبدا ؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر غيبى ، ويسمى عقيدة ، أى أمراً معقوداً لا يُحل أبدا .

والقمة العقدية هى أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت فى متعلقات الإيمان أمورا محسة فاعلم أن

الجهة فى الإيمان منفكة ؛ لأنه سيأتى ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين ، وهما محسوسان .

صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبى ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوحى نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذا الوحى ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها .

والغيبيات هى أرضية الحركة الإيمانية ؛ أو أساس الإيمان .

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدى ، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هى أساس لأمور حركية ، والأمور الحركية هى المقصودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد ، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته ، وكتبه ورسله ، لكن الأمر الذى يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة فى الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادى فيقول : « وآتى المال على حبه » كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتاه » . وعندما تقول : « آتيت » فهى تعنى أعطيت ، وهى تختلف عن « أتيت » التى تعنى « جئت » .

وما هو المال ؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل متمول وأسميناه بالنقد . وأصبحت له الغلبة ؛ لأننا نشترى بالنقد كل شىء ، لكن المعنى الأصلى للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يجىء المال لك أو لى أو لأى إنسان ؟ . أخَرَجَ أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئا ؟ . لا .

إن ما يملكه الإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك ، وإما من حركتك أنت .

إذن لا يقال : « آتى المال » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورث

عن متمول ، والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

والحق يقول : « وآتى المال على حبه » وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عُمَرَ ، وهكذا نجد ضاربا هو « زيد » ومضروبا هو « عمَر » . وإذا قيل : « أعجبنى ضَرْبُ زيدٍ » . إن قلت : « لعمر » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكت عند قولك : أعجبنى ضرب زيد » فهى تحتمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فساعة تأتى بالمصدر ويضاف إلى شىء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

« وآتى المال على حبه » يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى : يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون » . . وهى تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير « وآتى المال على حب الإيتاء أى الاعطاء » أى يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للاعطاء ، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : وآتى المال على حب الله الذى شرع له ذلك ، وكل هذه المعانى محتملة .

والحق يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

( سورة الإنسان )

ويقول سبحانه أيضا :

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

( من الآية ٩٢ سورة آل عمران )

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه ، فعندما تؤتى المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه . وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون محبا للشيء الذى تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك ، ومن حبك له .

وإما أن يكون المال الذى فى يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة فى قلبك ، ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالى توفير مالى لدهرى
منفقا فيه فى رخاء وبأس
إن يكن فى يدى وليس بقلبى
فهو ملكى وليس يملك نفسى

إن قوله الحق : « آتى المال على حبه » تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذى يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون . ويقول الله فى حقهم « ويجعلون لله ما يكرهون » .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذى ينطبق عليه القول : « وآتى المال على حبه » ؟ .

إنه ، لـ « ذوى القربى » ألا ترون إنسانا له حركة فى الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم نرى قرباه الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين ، كيف تكون حالة نفسيته إذن ؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة ؛ لأن المفروض فى الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه ، ونذكر فى هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرا للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتى ؟ أدخله .

فلما دخل الرجل قال له معاوية : أى إخوتى أنت ؟
قال : أخوك من آدم .
فماذا قال معاوية : ؟ .
قال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكونن أول من وَصلها . وأكرمه .

فإذا كان الانسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه ؟ . كيف يستطيب المؤمن ـ إذن ـ نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية ، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله ؟ .

وفى دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة فى التكافل دوائر ، فهو سبحانه يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع ؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علنى وشهود ، لماذا ؟ . لأن الثمرة من الزواج هى الأبناء التى ستأتى بقطاع جديد من البشر فى الكون ، وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس ، وإن لم يرع الرجل فى أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه .

ولذلك عندما نرى شخصا يخفى زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرفيا مثلا نقول له : أنت تريد أن تأتى بثمرة منك ثم تنكرها ، فيأتى أبناء غير محسوبين عليك . ولذلك فلنكن على ثقة من أن كل مشرد فى الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة ، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا يهمل رجل ولدا منسوبا له إلا إذا تشكك فى نسبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر نسبه .

إذن فعملية الطهر التى أرادها الله سبحانه وتعالى فى الالتقاءات بين الرجل والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ، ينشأ منها مجتمع المستقبل ، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحملهم ، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد ، ويوصى الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم

تتسع الدائرة للقرابة القريبة .

وهات واحداً واصنع له هذه الدائرة ، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها ، وثالثاً واصنع له دائرته ، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية ، ستجد كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر ، فإن رأيت عوجاً فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتى المال على حبه ذوى القربى » ، تأمل - إذن - الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوى القربى ؛ لأن لهم مكانة خاصة ؛ وعندما يؤتى كل منا قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج ، وإذا وُجِدَ المحتاج فسيكون نزراً يسيراً ، وتتسع له الزكاة الواجبة .

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوى القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون ذلك ؛ لأن فى القرآن آية تقول :

﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ (٢٣) ﴾

( سورة الشورى )

ولماذا قربى رسول الله ؟

لأنهم ليس لهم حق فى الزكاة ؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أى نفع يعود عليه ، أو يعود على آله ، لذلك منع الله عنهم أى حق فى الزكاة . وكأن الله يريد أن يقول لنا : لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التى يأخذها أى فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شيء ، فلا بد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا تجعلونهم محتاجين .

وعلى فرض أن الآية تريد قُرباناً نقول : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا .

وبعد ذلك جاء الله بقوله : « واليتامى » ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال . واليتيم فى الإنسان غير اليتيم فى الحيوان ؛ فاليتيم فى الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم فى الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصى إلا إذا كان عنده شىء من مال ، عندئذ يكون هناك وصى لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل: « لذوى اليتامى » . فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ؛ لذلك فعلينا أن نؤتى اليتيم من مال الله حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصى .

وكذلك نؤتى المال للمساكين ، والمسكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذى لا قدرة له على الحركة ، كأن استخذاءه وذله فى الحياة منعاه من الحركة .

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو المسكين ، قال بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئا ، والمسكين يملك ما لا يكفيه ، أى يملك شيئا دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذى يملك ما هو دون حاجته ، والمسكين من لا يملك .

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبا من البر . وللمسكين أيضا نصيبا كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدى إلى منع أحدهما من المال ، لأن كُلاً منهما ـ المسكين والفقير ـ يستحق من مال الله . وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه .

وكذلك نؤتى المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعنى أنه ليس له مكان يأوى إليه إلا الطريق ، فهو رجل منقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال فى مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك ، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله ، فهو منقطع .

ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل ؟. لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيمانى متعدٍ إلى بيئة وجوده ، فحين يوجد فى مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون فى بيئة إيمانية متكافلة .

ونؤتى المال أيضا للسائلين أى الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من يسألك ولو كان على فرس ؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يبررون الشح فيقولون : إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : مادام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس »[1]

ومادام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد .

قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز ، أو يخفى المال بعيداً . وأقول : قد يكون عنده خبز لكنّه لا يكفى أولاده ، وقد يخفى المال الذى لا يكفيه ، ولن تخسر شيئاً من إعطائه ، فلأن تخطىء فى العطاء ، خير من أن تصيب فى المنع .

ونؤتى المال أيضاً لمن هم « فى الرقاب » وكلمة « رقبة » تُطلق فى الأصل اللغوى على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها ، أى الإنسان فى حد ذاته ، لماذا ؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة ، فتستطيع أن تمسك إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطاً تمنع تنفسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته ، وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ ﴾

( سورة البلد )

أى فك الأسير ، إذن « فى الرقاب » تعنى فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب البر أن

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن عدى فى الكامل عن أبى هريرة رضى الله عنه وهو ضعيف .

يشترى العبيد ويعتقهم ، أو يسهم فى فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق ، وفى تصفية الرِّق هناك شىء اسمه التدبير ، وشىء اسمه المكاتبه

هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص فى خدمتك ، فثمناً لإخلاصه فى خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبِّره بعد موتك ، أى تعطيه حريته فيصبح حراً بعد موتك ، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أى حراً ، ولا يدخل فى تركتك ، ولا يُورَث .

وقد تكاتبه على مال فتقول له : يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه ، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب فى الحياة وتكسب وتأتى لى بالمائة جنيه ، ثم أطلق سراحك ، وفى هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المُكاتب ليؤدى مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر .

ومن البر أيضا إقامة الصلاة ، كأن المعنى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة » ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هى أداء الصلاة فى أوقاتها على الوجه المطلوب شرعاً .

ومن البر أن نؤتى الزكاة ، فكأن كل ما سبق « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب » لا علاقة لها بالزكاة ، إن كل ذلك هو برّ آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيها سبق لما كان الله كرَّرها فى الآية .

هذه أوجه البر التى ذكرتها الآية من إيتاء ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب" وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشىء لم يفرضه الله عليك ، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك.

---

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل فى المال حق غير الزكاة ؟ ذكر هذه الآية :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

( من سورة البقرة )

إذن ، فتلك أوجه البر المطلوبة ، والزكاة أيضاً مطلوبة . ففى مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا اليتامى . صحيح أن فى مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن السبيل ، لكن فى البر هناك أشياء غير موجودة فى الزكاة ، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق ، وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مستخلف عن الله . فالله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود ، فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

( من الآية ٢٤٥ سورة البقرة )

إذا كان هو سبحانه الذى أعطى المال ، فكيف يقول: أقرضنى؟ . نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذى لك هو هبة من الله، ولكن إن احتاجه أخ مسم، فهو لا يقول لك « اعطه من عندك أو اقرضه من

عندك » ، إنمايقول لك : « أقرضني أنا ، لأنى أنا الذى أوجدته فى الكون ورزقه مطلوب منى » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » . إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو .

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفى ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضونى ما معكم من مال ؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة . كأنك لم ترجع فى هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى .

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضى الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهما . قال : لماذا ؟ قالت : لأنى نويت أن اتصدق به ، قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه ؟ قالت : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد المحتاج .

ومن البر أيضا أن يفى الإنسان بالعهد ، فالحق يقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وما معنى العهد ؟ . إن هناك عهداً ، وهناك عقد . والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد . والعقد يوجد بين طرفين أيضاً ، أحدهما يعطى ويأخذ ، والآخر يعطى ويأخذ .

ومن البر أن تكون من « الصابرين فى البأساء والضراء » . ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـ « الموفون بعهدهم » مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكنَّ البر ، فلماذا جاء « بالصابرين » منصوبة ؟ فماذا يعنى كسر الإعراب ؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول : لَمْ يكسر الإعراب هنا إلا لينبهنى إلى أن شيئاً يجب أن يُفهم ، لأن الذى يتكلم بليغ ومادام بليغاً وقال قبلها :

« والموفون » ثم قال : « والصابرين » فلابد أن يكون هناك سبب ، ما هو السبب ؟ .

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر ، إيتاء المال على حبه ذوى القربى و . . و . . ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب ، وكسر الإعراب يقتضى أن نأتى له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى : « والصابرين » وكأن معناها : وأخص الصابرين ، وأمدح الصابرين .

إذن كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحق أن يُخالف عنده الإعراب . لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال ، فالذى يقدر فى الصبر على نفسه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وإيتاء المال على حبه هو الذى فاز وظفر ، إذن كل ذلك امتحان للصبر . ومن هنا خص الله « الصابرين » بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح ، أو على الاختصاص .

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح ؟ .

لأن التكليفات كلها تعطى مشقات على النفس ، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر . ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون . ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة .

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد « والموفون » حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة ، بأن الإعراب فيما سبق «والصابرين» تقديرى معطوف أى هو معطوف على خبر « ولكن البر من آمن بالله » . . فجاءت « والموفون » مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر « ولكن » ، ثم جاء ما بعدها « والصابرين » منصوبة ، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين ، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها . « والصابرين فى البأساء والضراء » البأساء هو البؤس والفقر ، وهذا فى الأحوال ، نقول : فلان حاله بائس . « والضراء » هى الألم والوجع والمرض ، وهى تصيب البدن والجسد . « وحين البأس » أى حين الحرب عندما يلتقى المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل .

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور : فى البأساء ، أى فى الفقر ، وفى المرض ، وفى الحرب مع العدو ، صابر فى كل هذه الأمور .

ولذلك جاء فى الحديث الشريف :

« ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفَّرَ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها »[١]

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر : « أولئك الذين صدقوا » فـ « من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا » .

ماذا تعنى صدقوا ؟ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع الفعلى . وأولئك صدقوا فى إعلان إيمانهم ، وواقع حركتهم فى الحياة ، وصدق قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك . فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدت صفات الإيمان فى إنسان نقول له : لقد صدقت فى إيمانك ، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيمانى . وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون ، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام .

وما نتيجة صدق المؤمنين ؟ يجيبنا الحق بوصفهم : « أولئك هم المتقون » . وساعة تسمع كلمة « متقون » أو « اتقوا » . فذلك يعنى أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شىء ، ولا يُطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شىء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشىء .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المرضى

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً . وقلنا: إن من العجب أن كلمة « اتقوا » تـأتى إلى الشىء الذى هو « اتقوا النار » وتأتى إلـى «اتقوا الله » ، كيف يكون التقوى فى متناقضين ؟

نعم : لأن معنى اتقوا النار ، أى اجعلوا بينكم وبينها وقاية ، وهل النار فاعلة بذاتها أم بتسليط الله لها على العاصى ؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصى . إذن اتقوا الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله ، لأن لله صفـات جمال وصـفات جلال ، فاجـعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، لأنكم لا تتـحملون غضب الله ، ولا قهر الله ، ولا بطش الله ، فاجـعلوا بينكم وبين صفات جـلاله وقاية ، ومن آثار صفات جلاله النار . فالمسألة متساوية ولا تناقض فيها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾